(٩) أخطاء العلماء وواقع الأمة

(انفصال العلماء عن هموم الأمة)

د. راغب السرجاني:

تعرضنا إلى طرف كبير من الأمل الذي يجب أن يزرع في قلوب العماء بل يزرع في قلوب الأمة بكاملها النساء والرجال الكبار والاطفال، وفي قلوب المسلمين في البلاد الإسلامية والسلمين وفي البلاد غير الإسلامية من الجاليات الإسلامية، فهذه الصفة لا تنفك أبدًا عن مسلم ولا يجب أن تغيب عن ذهن واعٍ يريد للأمة الصلاح والسيادة والريادة.

وذكرنا أن الكثير يعتقد أن الحديث الكثير عن قضية الأمل قد يُخدِّر النفوس ويُذّهِب المسلمين عن واقعهم ونحن لم نقصد بذلك هذا التخدير مطلقًا، بل قصدنا أن نتحدث عن ركن أصيل من أركان تكوين المسلم وهو اليقين فيما وعد الله عزَّ وجلَّ والثقة في نصر الله عزَّ وجلَّ دون أن يجعله ذك يغيب عن واقعه وأن يدرس آلام أمته وأن يدرس المشاكل والأزمات التي تتعرض لها الأمة.

ولعلنا إن شاء الله سنذكر بعض الأمور التي قد تؤلم البعض، لكننا لا نذكرها لمجرد البكاء أو الحزن أو اليأس أو الإحباط، ولكن نذكرها لنبحث سويًا عن العلاج.

المشكلة كبيرة جدًا، وهي مشكلة البون الشاسع بين ما نحلم للوصول إليه وبين الواقع الذي نعيشه الآن، نريد أن نتكلم عن المشاكل التي تعيشها الأمة الإسلامية أو يعيشها علماء الأمة الإسلامية خاصة في هذا الزمن.

د. صلاح سلطان:

إننا يجب أن نكون واقعيين، فنحن نتعامل مع بشر والعلماء هم قطاع من هذا البشر، عندما كنا صغار كنا نتخيل أي معلم يدرس لنا انه داخل دائرة العصمة، وكنا نتفاجأ جدا عندما نرى أستاذا يفعل أمر شائن ولربما نتهم انفسنا واعيننا، وظلت هذه المسألة تؤلمنا جدا وأن نرى تصرف شائن من أحد أساتذتنا أو شيوخنا، لكن عندما كبرنا وعشنا وسط الشيوخ والعلماء وجدنا أن هناك فجوات هائلة وكبوات ليست بالقليلة بين العلماء

ولذلك أرى أن أزمة الأمة الأولى، ليست في حكامها وأمرائها، وإنما في علمائها، فالأمراء والحكام يحكمون على المال والسلطة والجيوش لكن العلماء يحكمون على الأمراء وعلى القلوب والعقول.

لو أن علماء أي بلد اجتمعوا على أمر ما وتعاهدوا وتعاقدوا على أن ينصحوا حاكم البلد ولا يتنازلوا لأن يقولوا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى، لكنهم لا يفعلون، وأن هؤلاء العلماء اعتبروا قضية القدس قضية محورية أساسية مفصلية فلا يمكن ابدًا مهما كانت الضغوط التنازل عنها.

د. راغب:

دعنا ندرس معا بعض المشاكل والأخطاء التي نلوم على علمائنا الوقوع فيها، وطبعا لا ندعي العصمة فكلنا معرض لهذه الأخطاء ونمر بمثل هذه التجارب، لكن ندرس هذه الأخطاء لنصلحها.

فخطأ العالِم لا يسقط عنه هيبته، وإن كان كبير، وانا أذكر، مع كامل الإجلال والتقدير والتعظيم، في جيل الصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين أن منهم من وقع في أخطاء والتي تعد من الكبائر، فبعضهم وقع في جريمة الزنا وبعضهم وقع في جريمة الفرار من الزحف وبعضهم شرب الخمر وبعضهم تخلف عن الجهاد، لكن بفضل الله عندما ذُكِّروا تَذَكَّروا، وعادوا إلى الله عزَّوجلَّ، وعادوا مرة أخرى دعامة رئيسية من دعامات هذه الأمة.

إن أول مشكلة نرصدها في واقع علمائنا: هي أن هناك نوع من الانفصال للعالِم عن واقعه الذي يعيشه، فيكون العالَم الإسلامي في وادٍ والعالِم الإسلامي في وادٍ آخر، ما سر هذا التناقض؟

يكون العالَم به مشاكل كثيرة جدا، ليست فقط مشاكل القدس وفلسطين وإن كانت هذه على قمة المشاكل، لكن هناك مشاكل كثيرة مشاكل سياسية مشاكل الاحتلال العسكري الذي تعاني منه أكثر من بقعة في العالَم الإسلامي، مشاكل اقتصادية، آلاف وملايين الجوعى والفقراء، مشاكل البطالة التي تنتشر في العالَم الإسلامي، مشاكل الأمية الفادحة في العالم الإسلامي، مشاكل السياسة وعدم القدرة على تغيير الأوضاع التي تعاني منها الأمة الإسلامية منذ عقود طويلة، مشاكل اجتماعية اخلاقية، لكن أين العالِم من هذه المشاكل؟

هل العالِم يعيش هموم الأمة، أم يعيش فقط همومه الشخصية الذاتية، هل هناك انفصال أم اتحاد، ما رأي حضرتك وما الوضع الذي نعيشه الآن؟

د. صلاح:

إذا أردنا أن نتكلم عن الظاهرة والحالات:

فالظاهرة هي صمت العلماء وانفصالهم عن واقعنا، أما الحالات هي معايشة عدد محدود من العلماء لأزمات الأمة ومشاكلها اليوم.

صار الانفصال عن هموم الأمة هو الظاهرة، صار هو الواقع والمعايشة لواقع الأمة هو الواقعة، وهناك فرق علمي بين الواقع والواقعة، بين الظاهرة والحالة، نحن عندنا حالات من الاهتمام بمشكلات الواقع، وعندنا ظاهرة بانفصال عن الواقع.

دعنا نأخذها من سقف السلم العلمي، الذي هو يفترض أن يصنع العالم، لنذهب إلى أي كلية من الكليات الشريعة التي تُدَرِّس ماجستير ودكتوراه ولنرى موضوعات الدراسة، فنجد أن كثير من علمائنا أجادوا الهروب إلى الماضي، ففر من الزحف في الميدان إلى الماضي، لأن الماضي آمن، لكن الواقع ربما يعرضه إلى شيء من الهلاك.

دراسة التاريخ تكون من أجل إصلاح الواقع أمر ضروري جدا، إنما أن يعيش الإنسان في دوائر تحقيق النصوص دون أن يأخذ من هذه النصوص منهجيات لإصلاح الواقع الذي نعيشه الآن.

فمثلا إذا درسنا علم الكلام لا يمكن أن أدرس مشكلاته ومدارس المعتدلة والأشعرية لكي أساهم في مزيد من تقسيم الأمة الإسلامية، وتكفير وتفسيق بعضنا البعض.

في منهج علم الكلام أقول أن هناك منهجيتان:

منهجية التأسيس: أن أبدأ بالدليل العقلي مع من لا يؤمن بصحة الدليل النقلي، والدليل النقلي هو القرآن والسنة، وعندما أبدأ بالدليل العقلي يكون في هدفي أن أصل لمن لا يؤمن بالدليل النقلي وأن أصل معه إلى اليقين بصحة الدليل النقلي، ولو كان هناك أحدا يؤمن بالدليل النقلي فهناك منهجية أخرى وهي منهجية الترسيخ: على طريقة قول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٦٠]

وهناك بعض الشيوخ عندما يختاروا منهجية الكلام يكون ذلك لتكفير بعضهم البعض، مثلا يكون أخ صيدلي ويعلم الأزمات التي تمر بها الأمة ويعلم شركات الأدوية التي تحدث المرض وتخرج النصل الذي يعالج المرض وتشيع في الفقراء الأمراض الفتاكة، وهو صيدلي، وهذا ميدانه، لكن يقوم بكتابة كتاب في الرد على الجهمية، الجهمية الذين انتهوا من ألف عام والله سبحانه وتعالى حاسبهم.

وهناك قصة واقعية لأحد الناس، عندما ذهبت إلى امريكا في مركز إسلامي قريب من مدينة بوسطن، رأيت الهروب من الواقع على أشده في مجتمع أمريكي، رأيت يدرس للناس العقيدة الإسلامية ثم يقول بالجملة (كل الأشعريين كفار).

وتحول إلى الإمام النووي وبن حجر العسقلاني وشراح الأحاديث وعلماء التفسير واظهر لهم بعض الأدلة على كفر الأشعرية ثم قضية تأويل القرآن ثم قال (كل علماء مصر والشام كفار) وكل هذا كان يُدَرِّسُه في المسجد الذي أنا فيه إمام...

د. راغب:

عن هذا الأمر

كنت أقرأ في كتاب البداية والنهاية للإمام بن كثير، وهو من أئمة السلف، على صدق أحقية الصديق رضي الله عنه وأرضاه في أن يكون خليفة للرسول صل الله عليه وسلم، كان يذكر ويسوق بعض الأدلة واستشهد بكلام كثير لأبي حسن الأشعري، مع أنه كان يختلف معه في قضية التأويل يقول بن كثير: (وهنا يقول الأشعري رحمه الله كلاما يكتب بماءٍ من الذهب واغلى من الذهب)، ثم يذكر الحكم الذي استنبطه الأشعري وبه يستدل على خلافة الصديق الصحيحة بعد رسول الله صل الله عليه وسلم.

أجليت كثيرًا بن كثير عندما تحدث عن رجل يخالفه في بعض القضايا وقضايا قد تكون كبيرة في نظر كثير من الناس، فيطلب الرحمة له ويقول أن كلام أغلى من الذهب، فهذه هي العلاقة بين علمائنا.

د. صلاح:

فأخونا هذا طلبت قلت له أنا عندي عدة كتب واقرأها،

وقلت له في الغرب هناك أناس مسلمين يقولون أن القرآن ليس له حجية بسبب التقدم الحضاري وان القرآن لم يعد له لزوم وكلام يكتب من مسلمين، وكلام يطعن في التاريخ الإسلامي.

هناك توجد علمانية تغزو وتعشش في عقول الأمة الإسلامية الآن.

فحتى ترد على هذا، عليك دراسة العقيدة أولًا ثم نُدَرِس قضية قول الله تعالى: {أَن الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [يوسف: ٤٠] وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق وهو الذي له الخلق وله الأمر، فالشيوعية تقول أن الله ليس له الخلق وليس له الأمر، والعلمانية تقول أن الله هو الذي خلق لكن الأمر لنا ويقولون اننا لسنا بكفار مثل الشيوعيين، أما الإسلام اكتملت فيه هذه المسألة وكما قال الله تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤]

قلت له: انظر إلى الشبهات الموجودة الآن ولا تكُفر أحدًا بسبب اسمه أو شخصه.

فقال لي: لا يمكن أن أُدَرِس أبدا إلا ما صح شرعا.

قلت له: يا أخي انا أريد أن ينتفع الناس منك، لكنه لم يوافق، ثم قلت له: هذا هو الوجه الحسن عندي أخبرتك بهدوء وبنصيحة، وفكر فيها إلى الغد وإن لم تفعل فهناك وجه آخر.

قال لي: ما هو، قلت له: ستراه غدا عندما أسمع منك، قال لي: أنا لد أدرس الا بهذه الطريقة.

قلت له: لن تدرس ولا محاضرة واحدة في المسجد عندي، لن يكون لك وجود به.

هناك في الغرب الفتن كثيرة جدًا للكبار والصغار ولدينا قضايا ضخمة به تحتاج الناس الكلام عنها، كثيرًا من الناس تدخل الإسلام ويحتاجون لمن يحتضنهم، لا يحتاجون الكلام عن الأشعرية والمعتزلين، يحتاجون أن نعَلِّمهُم العقيدة الصحيحة التي تعلمناها من الصحابة وفي أبسط صورها. كما قال أعرابي: (سماء ذات أبراجٍ وأرضُ ذات فجاج وبحارٌ ذات أمواج أفلا يدل ذلك على السميع البصير، اللطيف الخبير؟).

فاصبح هناك حالة انفصال في الشرق والغرب ايضا، وليس في الشرق فقط.

دعني اخبرك بقصة حقيقة حدثت بعد أحداث سبتمبر، قابلت أحد الإخوة الأئمة وكان قد أصدر بيانات عن حرمة الصلاة وراء أي إمام حليق وحرمة الصلاة وراء أي شخص مسبل إزاره، وتم توزيعها في أول جمعة بعد أحداث سبتمبر مباشرة، رغم أن هناك كلام للإمام النووي يقول أن هذا من التقييد المطلق، لكن ليس هذا وقت الحديث عنه!

وعنه الرسول صل الله عليه وسلم يقول: «ما أسفلَ من الكعبين من الإزارِ ففي النارِ»

الراوي: أبو هريرة -المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري -الصفحة أو الرقم: ٥٧٨٧

خلاصة حكم المحدث: صحيح

ثم يقول في حديث آخر: «لا ينظرُ اللهُ إلى من جرَّ ثوبَه خيلاءَ»

الراوي: عبدالله بن عمر- المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٥٧٨٣

خلاصة حكم المحدث: صحيح

فكل هذا الكلام موجود في الفقه وليس كلاما مجمع عليه، والعلماء كلهم قالوا: (ما لا يجمع عليه لا يتوجب فيه أمر ولا نهي) طالما به وجه عند أحد الأئمة، والإمام النووي هو شارح مسلم ومن كبار العلماء.

فقال هذا الأخ لي: لا نأخذ عن أي من هؤلاء العلماء، نحن نأخذ فقط من الرسول مباشرة!

فقلت له: وكلام العلماء هذا من أين أتى؟! فكله اتى من كلام الرسول صل الله عليه وسلم، كما قال الإمام بن تيمية في رسالة رفع الملامة عن أئمة الأعلام، وهي رسالة رائعة في الجزء ٢٢ من مجموع فتاوى الإمام بن تيمية، يقول: (وكل من رسول الله ملتمس غرف من البحر أو رشفا من الديمِ)، أي أنه لم يخرج أحد عن كلام الرسول، حتى من اخطأ يمكن أن نتركه.

وكنا في أحداث سبتمبر نقول بأعلى صوت أن لا يجوز قتل الأبرياء ليس فقط في أمريكا وإنما في كل العالم، وأن دم الفلسطيني لا يقل عن دم أي بريء في العالم، وخرج ناس وقتها ليقولوا كلامًا آخر وتزلفوا إلى السلطة الأمريكية بطريقة مهينة جدًا.

لكن كان هناك حالة من الانفصام، هناك انفصال عن الواقع بالفعل، فوالله أراها مخططة، لولا أنني لا أميل إلى التفسير التأمري، لكن إذا كنت تجمع عدة شواهد صغيرة فتتكون عندك قاعدة كبيرة، فهذا النظر منهجي.

د. راغب:

لعلها مخططة بشكل غير مباشر، بشكل يزرع بعض المعاني عند العلماء، لأننا نعلم اناس مثل هؤلاء كُثُر، كلمني احد الإخوة من دولة عربية قريبة جدا من العراق أثناء احتلال العراق ٢٠٠٣ يشكو لي فيقول: لدينا في المسجد تقوم مشاحنة كبيرة ومجادلات فقهية كثيرة في قضايا معينة، والجيوش الأمريكية تُعربد في العراق وتحتل وتقتل وتستنزف ثروات وهناك هزة كبيرة جدا في العالم الإسلامي وغرس خابور في عنق الأمة الإسلامية في العراق، ويقول لي كانت القضية المثارة في المسجد هي: (لو نبت لإمرة لحية هل تحلق أم لا تحلق)!

انظر إلى ما وصلوا إليه من انفصال، والعراق تحتل في نفس الوقت الذي تدار فيه مناقشتهم هذه، ولا يذكر أحدهم كلمة أو بيان أو تعليق على بلد إسلامي إلى جوارنا، وأذكر اننا كنا نعاني من هذا البلد وأنها على علاقة حميمية بأمريكا وكانت هناك أدلة بأن له علاقة بهذا الاحتلال.

هذا الانفصال أنا أراه يصل للقواعد، للصغار وللكبار، لعل هناك شيء غير مباشر، ولعل هناك بالطبع أناس مُسَلَطة ومُوَجَهة بتأمر خارجي، لكن أنا أشعر أن المشكلة الحقيقية من الداخل، فمشكلة الانفصال هذه متجذرة منذ ١٠٠ سنة

د. صلاح:

عندما تجد مع بداية الانتفاضة في فلسطين وكان العالم كله يتكلم عنها وقتها، فيخرج كتاب من هيئة علمية شرعية كبرى تحت عنوان (القنوط سنة أم بدعة)، هل يمكن أن يصل الكاتب والباحث إلى شيء مُختلف عن أقوال الأئمة في القنوط وانه عند الشافعية في آخر ١٥ يوم من رمضان وعند المالكية قبل الركوع، وعند الآخرين بعد الركوع.

شُغل الناس بقضايا هي من فروع فروع الفقه وتركوا القضايا الأصلية الكبيرة، هذا هروب من أجل تجميل الوجه الذي لا يمكن أن يُجَمَّل على الإطلاق.

د. راغب:

ولعل ما هو أشد من ذلك هو إثارة قضايا تثير الفتن ليست فقط تأخذ المسلم بعيدا عن واقعه ولكن توقعه في فتن.

د. صلاح:

ترك الجميع قضايا الاستعباد الخارجي وقضايا الاستبداد الداخلي وقضايا الفساد المالي وقضايا التحلل الاخلاقي والتخلف الحضاري وغيرها من قضايا التخلف العلمي الفقر والجهل والمرض وهذا السرطان الثلاثي الذي أصاب نخاع الأمة الإسلامية.

أتمنى أن يخجل العلماء من طرح قضايا مثل: إرضاع الكبير وبول النبي صل الله عليه وسلم، هذا العالِم يجب أن يعتذر للأمة لأنه انصرف وانشغل بهذه القضايا، فالعقل عبارة عن مربع كبير بداخله مربعات صغيرة، إذا عبئت المربعات الصغيرة بقضايا صغيرة فلم يعد مكان للاهتمامات الكبيرة في المربع الكبير!

وهذا أراه هروب، كما أسماه الشيخ الغزالي رحمة الله عليه: (الهروب إلى فقه دورة المياه)، أنا أحيانا أسمع أئمة على المنابر يشرحون فقه دورة المياه وكيفية الوضوء، النبي صل الله عليه وسلم كان عندما يصعد إلى المنبر على صوته وأنذر قومه كأنما جيشًا وراء الوادي، كان يغير على الناس، وكان يعيش هموم الأمة.

نحن نريد خطبة الجمعة ليست فقط لتصح بها الصلاة وإنما نصنع بها الحياة.

لكن أن يأتي خطيب يثير قضية هامشية جدًا ويترك قضايا محورية أساسية في الأمة الإسلامية هذا يعد هروب وانفصال، وقد حدث أن نسمع خطبة جمعة موزعة على المساجد كلها من وزارة الأوقاف وقد قَبِلَها كثير من العلماء وكانت تحت عنوان (أنت والسيارة)، خطبة تتكلم عن حق السيارة على صاحبها!

أقول لهؤلاء أنتم على منبر رسول الله صل الله عليه وسلم وبهذا تفصلون الناس عن واقعها تماما، ثم تأتي الخطبة التي بعدها تأكيد على أهمية حق الطريق، نحن لا نقول الإسلام ينفصل عن هذه الجوانب لكن كانت أيامها هناك أزمات ضخمة كبيرة للأمة.

د. راغب:

دعني أقول لحضرتك جزئية استدراك بسيطة، وهي أننا عندما نقول أن هناك قضية هامشية أو بسيطة من القضايا، وهي قضية من قضايا الدين، لا يعني ذلك أن هذه القضية غير مهمة ولا نعني بذلك أنها قضية لا ينبغي أن تُدرس.

ولكن أولا: هناك أولويات لا بد أن نتكلم في الأولى ثم الأقل أولوية وإن كان الكل المهم طالما أنه جزء في الدين.

ثانيا: هناك خطاب يوجه للعامة وخطاب يكون في المحافل الأكاديمية، فهناك في المحافل بين الأساتذة والعلماء والفقهاء تُدرس القضايا وإن دقّت حتى نخرج بحكم ينفع للمسلمين كلهم حتى ولو كان سيحتاج إليه مسلم واحد فقط.

لكن في الخطاب للعامة، عندما يصعد العالِم على المنبر في خطبة الجمعة ويكلم الناس أو يخرج للفضائيات أو يكتب في الجرائد، لا بد أن ينتقي الكلام الذي يمس حياة الناس وهموم أمتهم، وهنا يصبح العالِم عالِمًا ربانيًا حقيقيًا يعيش هموم أمته.